يوم دارة جُلجُل

كان الفتى الراكب أجمل الفتيان، وكانت فرسه العربية الكريمة أجود الجياد. كان الفتى في ميعة الشباب، خلعت عليه سن العشرين رونقهـا، وهو يهتز للنسـيم البليل، في صباح يـوم صاف من أيام الشتاء، في واد ضيق من وديان نجد ببلاد العرب. وسار وراءه كلب طويل الجسـم، ضامر الحشا، تظهر عليه الشراسة والضراوة، وهو يتطلع بين حين وآخر نحو سيده، كأنه ينتظر إشارته.

كان الفتى سمهـريَّ القوام، له ذلك اللون الأسمر الخمرى الذى تخلعـه الصحراء علـى بنيها، وتجرى فى وجناته دماء الشـباب القوى، تكاد تبض من تحت بشرته الرقيقة، وكانت عيناه سوداوين واسـعتين، يـبرق سـوادهما الفاحم فى وسـط بياضهمـا الناصع، ثم تطرفان بأهداب طويلة تلمس أطرافها حاجبين دقيقين مقرونين. وكان الفتى فى ركوبه يرفع رأسه فى شيء من الميل، فيبدى جانب أنفـه الأقنى رقيقًا كأنه حد السـيف البـدوى، ويقلِّب نظره باسمًا فى أثناء سـيره بالوادى فيتأمل عَراره وخُزاماه، ويهتز لاخضرار عشبه وابتلال أغصانه، فيتمايل على ظهر فرسه كأنه يجيب ألحان الحياة الخفية التى ينبض بها شبابه.

بلغ به السـير بعد قليل إلى دارة جُلجُل، وهى قطعة من الوادى ذات صخور ملسـاء، بها وهدة فسيحة اجتمع بها ماء المطر الصافى المتلألئ، يجعد وجهه مرور النسـيم، ويرقص عليه شعاع الضياء، فنزل خفيفًا عن فرسـه، وألقى زمامها على غاربها، ومسـح بيده على جبينها الواسـع، فجعلت الفرس تشم كتفيه وصدره متوددة، وتضرب الأرض بحافرها كأنها تأبى على صاحبها أن يقف بها عند مثل هذا المكان القريب.

ووقف الكلب إلى ناحية كأنه غيران من تدليل سـيده لفرسـه، وأقعى يلهث فى انتظار استئناف السير.

وذهب الشاب إلى الحوض فملأ منه إداوته، ثم مال إليه فاحتسى منـه لنفسـه حفنتين ارتوى بهمـا، ثم رفع رأسـه فملأ صدره من الهواء الصافى وتبسم بسمة هادئة تنم عما كان يجيش فى نفسه من الارتياح إلى الحياة والتنعم بها.

وذهب إلى فرسـه فعلـق الإداوة فى جانبها، ثم مـرّ بيده على كفلها الناعم وقال كأنه يخاطب نفسه:

«لها كفل كصفاة المسيل».

ثـم نظر إلى الصخر الأملس الـذى اجتمع به الماء الصافى العذب وأعاد النظر إلى كفل الفرس، ومرَّ عليه بيده مرة أخرى، كأنه يريد أن يستيقن من صدق الشبه بين كفل فرسه وبين الصخرة التى صقلها مسيل المياه.

وانتحى بعد ذلك ناحية من الوادى وجلس يتأمل فرسه الرشيقة وهي تضـرب الأرض بحافرها قلقة إلى السـير والركض، وأعجبه منظرها فجعل يجول ببصره في أعضائها، وينتقل من عضو إلى آخر بعد أن يمتلئ منه ويتملى بالإعجاب.

ثم نظر إلى حوافرها وسيقانها وقال مترنمًا:

له أيطَلا ظبي وساقا نعامة   وصَهوة عَيْر قائم فوق مَرْقب
ويخطو على صُم صِلاب كأنها   حجارة غَيل وارساتٌ بطحلب

ثم رفع نظره إلى ذيلها المسبل الطويل الشعر وقال: «لها ذنب مثل ذيل العروس».

وانتقـل بعـد ذلك إلى رأسـها والهـواء يلعب بعرفها وشـعر ناصيتها، فقال وهو يتأمله:

لها عُذرَ كقرون النسا   ء يركبن في يوم ريح وصر
لها جبهة كسراة المِجَنّ   حذّفه الصانع المقتدر
لها منخر كوجار السبا   ع فمنه تريح إذا تنبهر

ثم وقف وذهب نحوها فاتحًا ذراعيه كأنه يستعد للقاء صديق، حتى إذا قرب منها احتضنها وقبل جبينها، وقال يخاطبها: هلمى إلى الصيد يا خيفانة وقد أطلق عليها هذا الاسم توددًا يشبهها بالجرادة الصغيرة، فقد كانت دقيقة الأعضاء ضامرة اللحم، خفيفة في العدو كأنها ظبية من الظباء. ثم قال وقد قفز على ظهرها:

وتعدو كعدو نُجاة الظباء   أخطأها الحاذف المقتدر

ومـا كاد يتـم كلمته حتـى انطلقت الخيفانة تعـدو في الوادى كأنها تريد أن تظهر لسيدها صدق وصفه. وكانت تثب فوق الشعاب كأنها لا تعرف سـيِّرا غير وثب الظباء، وعدا الكلب وراءها يشـم الآثار حينًا، ثم يعدو فيسبق وينظر إلى سيده الراكب يريد أن يفوز برضاه عن صحبته، فتبسـم إليه الفتى وقد أدرك معنى نظرته وقال كمن يسترضيه:

ألصّ الضروس حنىّ الضلوع   تبـوعٌ طلـوبٌ نشيط أشـــر

فمضـى الكلب يثب بحذائه ويعدو كأنه ارتاح إلى تقدير سـيده وحسن رأيه فيه.

واسـتمر الشـاب بعد ذلك في وصف فرسـه، كلما وثبت وثبة خفيفة خطر له فيها معنى جديد، وكلما أحدثت في ركضها حركة بارعـة اهتز إعجابًا، ووقع نظره منهـا على صورة رائعة. وانتهى به السـير بعد ساعة إلى فم الوادى، فانفرج جانباه إلى مسيل واسع من رمال ناعمة قد غطاها العشب بين طويل وقصير، ووشته الزهور بين أصفر فاقع من الخُزامى، وأحمر قان من العنم ونُوَّار العَضْرس، وأبيـض ناصع من العـرار، وانتثرت به الأعـواد القصيرة من مَرْخ وثُمام وأرطى. فوقف لحظة وجعل يجول ببصره في الفضاء المنبسط، ويتدسـس به في أصول الشـجر والغصون، ويسـتقرى به جنبات الرمـال، وهو فيما بين ذلك يتغنـى بتهازيج قصيرة، ويملأ صدره

مــن الهواء الصافى. فلاح له بعد حين ســرب من بقر الوحش لمعت ظهورها البيضاء فى ضوء الشــمس، يتخلل بياضها سواد قوائمها، وهى تعدو فى عُرض الســهل، فصاح صيحة فرح وأســرع بفرســه فأطلقها نحو السرب، وكان الكلب أسبق إلى تنسم ريح البقر، فسبق يعدو تجاهها، يثب فوق الرمال ولا يكاد يمس الأرض من سرعته.

وأحس الوحش المطاردة فأســرع يلتمس النجاة، وكانت الأرض مبســوطة ليس فيها ثنايا ولا شعاب، فطالت المطاردة، وكاد الصيد يفلــت إلى ما وراء الكثبــان المحيطة بالفضاء. ولكــن الكلب أدرك زوجًــا من الوحش، ورآه الفارس عن بعد وهــو يحاورها ويواثبها ويعقرهــا فى أفخاذها ثــم يَهِرُّ فى وجهها، فوقــف له ذكر البقر يحمى أنثــاه ويدفع عنها، وكرّ على الكلب وقــد أيقن أنه لا بد له مــن النضال، وبدأ بينهما صِراع عنيــف. وأدرك الفارس كلبه وهو لا يزال فى معركته عنيدًا باســلا، والدماء تســيل من جراح واسعة فى جنبه وبطنه. فسدّد سهمه إلى الوحش ورماه فى جنبه الأيسر، فترنــح وارتمى إلى جانب شــجرة ملتفة الأغصــان، ثم نهض بعد قليــل وقد أحس بالحديــد يمزق قلبه، فجمع قوتــه فضرب الكلب بقرنه ضربة خرقت صدره، وارتمى هو والكلب جميعًا على الأرض والدماء تنزف منهما.

نزل الفتى مسرعًا وقد راعه ما رأى، فاخترط سيفه وذفّف على الوعل الجريح. ثم أهوى بيده إلى الكلب يريد أن يسعفه، فرآه فاترًا يعانى خَلجات الموت، فأقعى إلى جواره ووضع يده على رأسه بحزن، وقد علم أنه لن يقدر له على شىء، فرفع الكلب إليه طرفًا كليلا ونظر إليه نظرة وانية كأنه يشكره على حنانه، ثم خمد بعد قليل.

فقام الفتى وهو يتنفس نفسًا عميقًا، والحزن يجيش فى صدره لموت كلبه الوفى. ولم يمض من ذلك المكان حتى حفر له حفرة دفنه فيها ووضع على الحفرة أحجارًا كبارًا لتكون آية له فى ذلك السهل الفسيح، لعله يومًا يمر به فيعرج على حفرته تأدية لحقِّه عليه.

وذهب إلى الوعل الضخم فرفعه بعد مشقة، ووضعه فوق ظهر الفرس، وعاد به أدراجه حتى بلغ المكان الذى مر به فى الصباح، عند الحوض الممتلئ بالماء الصافى بين الجنادل الملساء.

كانت الشمس عند ذلك قد مالت عن الزوال واتجهت الظلال إلى الشرق، وتوافدت قطع بيضاء من السحاب كأنها قطعان سائمة، تجتمع حينًا، وتنتشر حينًا، وهى تغطى السماء جزءًا بعد جزء مقتربة من كبدها اقترابًا بطيئًا.

وسار الفتى بصيده غير متعجل، مترفقًا بفرسه الضامرة بعد تلك المطاردة الطويلة فى صيد اليوم. فلما عاد فى سيره قريبًا من دارة جلجل، كانت الشمس تبدو من خلال السحب وهى مائلة

نحو الأفق الغربى، فينفذ شعاعها حينًا ويحتجب حينًا، ويوشِّى أطرافها بألوان ساحرة عجيبة.

ولما اقترب من المكان استقبلته صيحة عالية من فوق ربوة رملية صفراء، فرفع بصره نحوها مبتسمًا، ولوح بيده وهو يقصد نحو أصحابه الذين جاءوا إلى هناك على موعد ينتظرونه للسمر تلك الليلة، فقد كانت ليلة قمراء من ليالى التمام.

ونزل عند أصل الربوة ثم أنزل الصيد الضخم فرماه على الرمل ووقف يتأمله قليلا، وهبط إليه أصحابه سراعًا وهم يتصايحون حتى صاروا حوله، فأحاطوا به مرحبين فى صخب وحماسة، وكانت تحياتهم مختلفة: «مرحبًا أبا وهب»! «مرحبًا جندح! » «مرحبًا بالأمير!» «صيد كريم يا امرأ القيس!» «هدية ملك لنُدمانه!» «عِمتَ مساء يا بن حجر!»، وكان الفتى يجيب تحيات أصحابه بابتسامة أو مصافحة، وفى مظهره ما ينبئ بأنه سيد كريم يتلقى ما ينبغى له من تحيات أتباعه وتبجيل أصحابه. فقد كان امرؤ القيس بن حُجر الكندى سليل بيت آكل المرار الكندى اليمنى ذلك البيت الذى كان يحكم بنى أسد ببلاد نجد منذ أجيال، أبوه حُجر بن الحارث ملك بنى أسد، يستمد سلطانه من أبيه صاحب التاج فى الحيرة، الحارث بن عمرو الملك العظيم ذى السطوة والسلطان الذى لم يكن فى بلاد العرب عند ذلك ملك يبلغ شأوه.

اصطفاه عاهل فارس قُباذ العظيم ليكون سيد العرب وجعله ساعد دولتـــه الأيمــن، وجعل مقره فى الحيرة بعــد أن طرد ملكها الأول وسليل حملة تيجانها المنذر بن ماء السماء اللخمى.

أســرع الفتيان بعد أن هدأت هزتهم ليوقدوا النار ويسلخوا الصيد ويجهزوا الطعــام، ويضعوا زقاق الخمر على جانــب الربوة ويعدوا مجلسًا لليلة رائعة يكون قطبَها الفتى الجميل الكريم والشاعر المبدع والأمير البارع وابن الملوك الغطاريف والسمير العذب الحديث، امرؤ القيس بن حجر. وذهب الأمير فى أثناء ذلك إلى أعلى الربوة يستروح مــن عناء يومه، فجلــس ينظر حوله ويتملى بجمال منظر الشــمس الغاربة والأرض الحالية بالزهر والعشــب، وبالفضاء الفســيح الذى يخيــم عليه الســلام. فحانت منه التفاتة إلى الــوادى القريب فراعه منظر عند الحوض الواســع الممتلىء بالمياه، فقد كان هناك ســرب من العذارى جئن من مضارب الخيام ليحملن الماء قبل المساء، فاطمأنن إلى خلو المكان، واســتخفَّهن جمال الأصيل، وخلب ألبابهن بريق المياه، فنزعن أثوابهن ونزلن فى الحوض يمرحن فيه ويلعبن، بعد أن ملأن القرب والجرار. فتبسم امرؤ القيس للمنظر المعجب، واستهواه فتون الشباب، فأسرع هابطًا من الربوة، وسار وحده نحو الوادى، يختلس الخطــى حتى صار عند ملابس الفتيات، وهــن لا يفطن إلى وجوده، فجمعها فى يديه وأســرع فى خفة الوعــل، فكمن فى جانب الوادى يتأمل حسن أجسامهن ويضاحك نفسه بما ينتظر من معابثتهن.

فلما أدرك الفتيات بغيتهن من المرح واللعب، خرجن يلتمسن ثيابهن حيث وضعنها، وما كان أعظم فزعهن عندما لم يجدنها. فعلا صياحهن من الذعر، وأسرعن يتدافعن ويتواثبن، يردن أن يجدن مكانًا يختفين فيه، فقد علمن أن هناك لا بد رقيبًا وقعت عينه عليهن. وخرج عند ذلك امرؤ القيس من مكمنه، وصاح وهو ضاحك.

«لا بأس عليكن، هذه ثيابكن إذا أردتن أخذها».

فعلت منهن عاصفه مضطربة من الصيحات، بعضهن يلوم، وبعضهن يشتم، وبعضهن يهدد، وقد تزاحمن يتماسكن ويتوارى بعضهن فى بعض، ويحاولن التستر وراء الصخور وفى ثنايا الشعاب.

فقال امرؤ القيس فى لهجة هادئة مرحة:

«لا عليكن من سبِّى ولومى، فلقد آليت لا أعطى إحداكن ثوبها أو تأتى إلى لتأخذه، أو فلتذهبن عاريات إلى بيوتكن ليعلم آباؤكن كيف تملأن جراركن».

وكان لقوله الهادئ أثر عظيم فى الفتيات.

فأقصرن عن الصياح والتهديد وأقبل بعضهن على بعض يتشاورن فيما هن فاعلات.

وبرز امرؤ القيس من ظل الصخور حتى بدا للفتيات، فلما وقع عليه نظرهن علت منهن صيحة يشوبها فزع، وتختلط بتهانف الضحك. فقد عرفن أنهن لن يجدن فى ذلك الفتى حيلة إلا بالنزول على إرادته.

واجترأت إحداهن فقالت لصاحباتها:

«والله لا حيلة لنا في أمر هذا الفتى ابن حجر ولخير لنا أن نتَّقيه بالطاعة».

ثم سارت نحوه وهي تحاول إخفاء جسمها بشعرها المسدل، ويديها المضمومتين، وخطوها المتعثر. وتبعتها صاحباتها يسَعيْن في أثرها، حتى صرن عنده؛ فمد يديه بالثياب فجعلت كل منهن تخطف ثيابها وتسرع عنه فتلبسها، وهي تشتمه وتستنزل عليه اللعنة، وهو يضحك ملء شدقيه ويجيبها بتحية، مثنيًا على ما بدا من جمالها الفاتن.

وجاءت آخر الفتيات جاهمة صامتة وعيناها مطرقتان والدمع يقطر منهما، فما اقتربت من امرئ القيس ووقع عليها بصره حتى صرخ قائلا: «فاطمة!».

وكانت فتاة بيضاء مشربة بحمرة تتدلى غدائر شعرها الأسود الفاحم على كتفيها إلى خصر نحيل من جسم كأنه تمثال راهب صنع من مرمر شفاف!

وأسرع الفتى فرمى إليها ثوبها وخلع شملته فطرحها على كتفيها ووقف مادًّا إليها يديه قائلا بصوت متردد ممتلىء بالخشوع والاعتذار: «عفوًا يا بنة العم!».

فلبست الفتاة ثيابها على عجل وهي مدبرة عنه. وسارت بعد ذلك مسرعة بغير أن تتكلم كلمة، وهو يسير وراءها مادًّا ذراعية متوسلا معتذرًا متذللا.

وبلغت الفتاة فى سيرها ثنية فى الوادى تؤدى إلى منزل أبيها، فعطفت إليها ونفذت منها إلى كثيب رملى، فتوقلت فيه والفتى لا يزال يتبعها ويعتذر ويستغفر، وهو من اضطرابه يتعثر فيقع ثوبه عن كاهله، فيجره مذهولا وهو لا يدرى كيف يثبته على جسمه. فلما بلغت الفتاة ظهر الكثيب وقفت ونظرت إليه غاضبة وقالت:

«حسبك يا هناة! لا تتبعنى. لقد ألحقت شرًّا بشر» فنظر إليها مستعطفًا وقال:

«قسمًا بيغوث ما عرفت أنك فيهن».

فقالت ولا تزال غاضبة لا تكاد تنظر إلى وجهه:

«لا أحب أن يراك أحد تسير معى».

فقال وقد طعنته كلماتها:

«ألست ابن عمك؟».

فقالت بقسوة وجفاء:

«لست علىَّ بأمين، أنت فتى داعر».

ثم مضت عنه وتركته مبهوتًا حائرًا لا يدرى أيمضى وراءها أم يعود، ولا يعرف أيجيبها أم ينثنى عنها، وضلَّت عنه الكلمات فلم يستطع قولا، حتى بعدت الفتاة عن عينيه وهبطت على جانب الكثيب نحو دارها، ونظر فى آثارها حزينًا، وقال كأنه يخاطب نفسه:

«أواه! أحقًّا تقطعينني يا فاطمة؟».

ثم أطرق وعاد أدراجه نحو رفاقه وقلبه مفعم بالهم، والهواجس تنتابه وتتجاذبه، فحينًا يغضب لجفائها وقسوتها وردِّها له هذا الرد المهين، وحينًا يثوب إليه الندم على تلك الدفعة التى دفعه فيها نزقه وخفة قلبه إلى اقتناص اللهو، فيلوم نفسه لومًا عنيفًا، ويتأسف على ما كان منه حتى انتهى به السير إلى صحبه، فوجدهم مشتتين فى أنحاء الوادى يبحثون عنه، خوف أن يكون قد أصابه شر من عدو رصد له، أو من وحش اعترض سبيله. فلما وقعت أنظارهم عليه تهللوا وصاحوا فرحين، وأقبلوا عليه يسألونه عن سر غيبته، وهو ساهم لا يرد إلا ردًّا ضعيفًا. فلما ألحوا عليه فى المسألة قال لهم فى لهجة تبرم:

«دعونى، فقد كنت أسير فى الوادى أروح عن نفسى عارضًا من همّ يعتادنى».

وكانوا يعرفون فيه أنه فتى عجيب، يصيبه أحيانًا مثل ذلك العارض فيضيق صدره بالهم، ويسوء خلقه، ولا يجرؤ أحد عند ذلك على إحراجه؛ فسكتوا عنه، ومضوا معه صامتين إلى مجلسهم، معللين الأنفس بأن الشراب لا بد يذهب بما علِقَ فى قلبه من ذلك العارض.

وأخذوا فى الشراب والسمر، وحلت عقدة صمته بعد حين، فأخذ يحدثهم ويحدثونه. وينشدهم من أشعاره وينشدونه، ولكنه كان لا ينشدهم إلا أشعارًا باكية حزينة، تروعهم بجمالها، وتلقى على مجلسهم سحابة من الأشجان.